



لقد بدأت مرحلة "نهاية الصراع في سوريا" وهذا لا يعني أبداً أتنا وصلنا إلى النهاية، لكن أسباب سقوط نظام الرئيس بشار الأسد قد تحققت. وكنا قد بحثنا بأنه ما دام الجهاز العسكري والأمني متamasكان وفاعلان، فسيبقى النظام. ومع أنهما ما زالاً يعملان، إلا أنه لا يبدو أن أحداً منهما متamasك. بل يشك المرء في قدرتهما على السيطرة على المناطق الرئيسة مثل دمشق وحلب. كما أنه لم يعد من المؤكد ولاء أفراد هذين الجهازين وإمكانية الاعتماد عليهم، بعد الانشقاقات التي تمت. كنا نظن أن أمام نظام الأسد فرصة قوية للبقاء، لكن – الوضع تغير تماماً. وفي مرحلة معينة في مقال الرأي الذي كتبناه بعد انشقاق الطيار السوري في 12 حزيران/ يونيو، ثم انشقاق عائلة طلاس ذكرنا أن شخصيات هامة في النظام قد بدأت تعيد حساباتها في احتمال بقائها وفي مصالحها.

لم ينحل النظام بعد، لكنه بدأ ينحل.

يعتبر التخمين في مكان تواجد الأسد، والمعارك العنيفة التي تجري في دمشق، جزء بسيطاً من مشاكل النظام. فالإشعارات، سواء كانت صادقة أم كاذبة، تخلق شعوراً بعدم التأكيد من أن النظام سيصمد الآن، ولا يمكن تبيين النتيجة.

فمن جهة، يمكن أن ينشأ نظام جديد يسيطر على الوضع. ومن جهة أخرى، قد ينهار الوضع في سوريا ليتكرر ما حدث في لبنان، الذي انقسم إلى مناطق تسيطر عليها طوائف متنوعة، وليس فيه حكومة مركبة فاعلة.

الاستراتيجية الروسية والصينية

بشكل ما، الصورة الجغرافية السياسية أوضحت من الصورة السياسية الداخلية. مهما حدث، فمن غير المرجح أن يستطيع الأسد العودة إلى حكم لا ينافسه فيه أحد. فقد عارضت نظامه كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا ودول أوروبية

أخرى. أما روسيا، والصين، وإيران، فدعمته لأسباب تختلف عند كل منها. فقد عارض الروس دعوات الغرب للتدخل، والتي كانت على أساس الاهتمام بحقوق الإنسان. وذلك لخشيتهما بأن يكون هذا التدخل المقترح ذريعة لمد سيطرة الغرب، وأن يستخدم ذلك ضدهم. ودعم الصينيون أيضاً السوريين، لعدة أسباب، منها أسباب الروس ذاتها.

حيث تأمل موسكو وبكين في تجنب إعطاء الشرعية للضغط الغربي بناءً على اعتبارات حقوق الإنسان الأمر الذي عانت منه كلاهما بشكل أو بآخر. إضافةً إلى ذلك، ترغب الدولتان في انشغال الولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص بالشرق الأوسط عنهم. ولم تكونا لتعاونا تدخلًا عسكريًا تفرق في حماة أمريكا، لكن الأخيرة رفضت أن تتحقق ما ترغبان به.

ومع هذا، كانت اللعبة الروسية الصينية أذكى من ذلك، فقد تركزت على إيران. كنا بحثنا أنه لو بقي نظام الأسد، وكان معزولاً من الغرب، فسيعتمد بشكل أساسي على إيران، داعمته الرئيسة. وقد قامت إيران بمد النظام بالمدربين، وقوات المهام الخاصة، والإمدادات، والمال لتساعده على البقاء. فالأحداث في سوريا، تمثل بالنسبة لإيران، فرصة كبيرة. فوضعها في العراق قوي نعم، لا تسيطر عليه تماماً، لكن لها تأثير قوي فيه.

فإن استطاع نظام الأسد البقاء، وكان ممتنًا لكون ذلك بسبب دعم الإيرانيين، فستصبح سورياً أكثر من العراق اعتماداً على إيران.

مما سيقوي بدوره الوجود الإيراني في العراق.

لكن الأهم أنه سينشئ منطقة النفوذ الإيرانية الممتدة من غرب أفغانستان إلى لبنان، حيث يوجد حزب الله أحد حلفاء إيران. يدرك الروس والصينيون تماماً أنه لو تم ذلك فستعمل الولايات المتحدة الأمريكية على تقويض منطقة النفوذ الإيرانية وستكرس الكثير من مواردها لأجل ذلك. وقد استفادت روسيا والصين كثيراً من العالم بعد حادثة 22 أيلول/سبتمبر، عندما استحوذ العالم الإسلامي على اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية، ولم تهتم إلا قليلاً بالصين وروسيا، أو لم تخصص إمكانيات كبيرة لهما. وبقرب انتهاء الحرب الأفغانية، يبدو أن فترة الراحة التي عاشتها روسيا والصين ستنتهي. وقد كانت استراتيجيتها في الموافقة على سيطرة إيران على المنطقة، والتي كانت ستشغل بالتأكيد الولايات المتحدة الأمريكية. كانت استراتيجية مفيدة جداً، بتكلفة بسيطة.

فقد قام الصينيون بتوفير الغطاء السياسي، حتى لا يعمل الروس لوحدهم دبلوماسيًا. لم يقدموا أي دعم للصراع السوري، لكنهم استمروا في معارضة العقوبات على إيران، بل وفروا لها فرصاً تجارية. أما الروس فقد كانوا ملتزمين أكثر بتقديم الدعم المادي والسياسي لنظام الأسد.

يبعد أن الروس قد بدأوا منذ فترة بالحساب لنهاية النظام. فقد استمروا بإمداد سورياً بالذخيرة والإمدادات الأخرى، لكنهم امتنعوا عن توريد الطائرات المروحيّة. "فشل" عدة محاولات لتوريدتها عندما سحب شركات التأمين البريطانية الغطاء عنها. هذا الذي أعلنه الروس سبباً لعدم التسلیم، لكنه من الواضح أنهم، لو شاؤوا، لقاموا به بالتأمين، لكنهم بدأوا بالتراجع عن دعم الأسد. فقد أشارت استخباراتهم إلى وجود مشاكل في دمشق. وخلال الأيام القليلة الماضية، وصل الروس إلى مرحلة اقترح فيها سفيرهم لدى فرنسا بأنه قد آن أوان رحيل الأسد ثم، طبعاً، عاد فنفي هذا التصريح.

صفعة استراتيجية لإيران

بسحب الروس لدعمهم، أصبحت إيران مكشوفة تماماً. كان الشعور السائد، خاصةً في الجزيرة العربية، أن إيران ستبرز في المنطقة. ويعتبر انهيار نظام الأسد ضربة استراتيجية لإيران، وذلك من ناحيتين.

الأولى: من المؤكد أنه لن تتحقق الآن منطقة النفوذ الواسعة التي كانوا يشكلونها.

والثانية: أن إيران ستنتقل بسرعة من قوة مسيطرة، إلى قوة دفاعية.

أما العراق فسيكون الموضع الذي تتجلى فيه الأمور. فبالنسبة لإيران، يمثل العراق أهمية كبيرة للأمن القومي.

فبعد حربهم الدموية مع العراق في الثمانينيات من القرن الماضي، من مصلحة الإيرانيين أن يضمنوا بقاء العراق حياديا، على الأقل، ويفضل أن يكون مواليا لهم. عندما كان نجم إيران في صعود، شعر السياسيون العراقيون أنه يجب عليهم التألف معها. أما بتغير الحال، فكما على القادة العسكريين السوريين إعادة حساباتهم وتحديد موقفهم، كذلك الأمر بالنسبة للسياسيين العراقيين. وبفرض العقوبات على إيران بغض النظر عن مدى تأثيرها عليها وبفقد سيطرة إيران على سوريا، من المؤكد أن الشعور سيتغير في العراق.

وهذا ما سيحدث، خاصة مع زيادة المصالح التركية في العراق. فقد أعلن الأتراك خلال الأيام الماضية عن خطط لمد أنابيب إلى حقول النفط في الجنوب وفي الشمال. فالنشاط الاقتصادي التركي يزداد قوة، وتركيا هي القوة الإقليمية الوحيدة التي يمكن أن تتفق في وجه إيران عسكريا.

وهي تستخدم هذه القوة ضد الأكراد في العراق. لكن ما يهمنا في موضوعنا، هو أن أية دولة تنشئ خط أنابيب، عليها أن تضمن وصولها إليه، إما سياسياً أو عسكرياً. وتركيا لا تريد أن تتورط عسكرياً في العراق، لكنها بالتأكيد تريد التفود السياسي الذي يضمن مصالحها.

فمجرد تقهقر الإيرانيين فيه مصلحة للأتراك، لملء الفراغ الناتج عن ذلك، إن لم يكن للحلول مكانهم. يزداد الضغط الآن على إيران، ومن المهم معرفة العواقب السياسية لذلك. كان هناك إجماع على الاستراتيجية السورية. وبفشل هذه الاستراتيجية، انحل عقد الإجماع. وسيكون لذلك تأثير داخل إيران، بل ربما أشد من تأثير العقوبات. فالحكومات لا تستطيع إدارة النكسات.

عواقب أخرى من وجهة النظر الأمريكية، يوفر انهيار الأسد فرصتين.

الأولى: يبدو أن سياستها بعدم التدخل العسكري المباشر، مع الضغط السياسي المتواصل، ولدرجة أقل الاقتصادي، يبدو أنها تنجح في هذه المرحلة. وبمعنى أدق، حتى ولو لم يكن لها تأثير، فالظاهر أنها تؤثر. وهذا سيزيد من مقدرة الولايات المتحدة الأمريكية على التأثير في الأحداث دون الحاجة إلى التدخل فعليا.

الفرصة الثانية هي أن الوضع الحالي يفتح الباب أمام توازن حقيقي للقوى في المنطقة، لا يتطلب التدخل الأمريكي المستمر. إحدى نتائج الأحداث في سوريا أنه كان على تركيا أن تراجع سياستها تجاه دول الجوار.

وبالنسبة للعراق، من مصلحة تركيا قمع مقاتلي حزب العمل الكردستاني الذين لجأوا إلى العراق، وحماية مصالحها النفطية والمصالح الأخرى. وتتغير السياسة التركية من تجنب جميع المجابهات، إلى تجنب الالتزامات العسكرية الكبيرة، مع مواصلة الجهود لتحقيق مآربها السياسية. وهذا يعني في النهاية أن تركيا ستغير موقفها لتوازن قوتها مع إيران، لأجل مصالحها في العراق.

وهذا يخفف عن الولايات المتحدة الأمريكية عبء احتواء إيران. وما زلنا نعتبر منطقة النفوذ الإيرانية تهديد المصالح الأمريكية والإقليمية، أعظم من تهديد برنامجها النووي.

وانهيار الأسد يحل المشكلة الرئيسة، كما أنه يزيد من شعور إيران بضعفها. وبناء على مدى قربهم من انتاج رؤوس نووية محمولة ونعتقد أنهم ما زالوا بعيدين عن تحقيق ذلك فسيشعر الإيرانيون بضرورة تعديل موقفهم.

أحد أكبر الخاسرين هي إسرائيل.

فقد كانت علاقتها واضحة مع نظام الأسد. وطالما كان يكبح جماح حزب الله، فلم يكن لديها مانع من بسط النظام السوري سيطرته في لبنان. لكن هذه الاتفاقية انتهكت منذ أن أجبرت الولايات المتحدة الأمريكية الأسد على الخروج من لبنان في 2012-3. ومع ذلك، كان الإسرائيليون يفضلون الأسد على السنة إلى أن ظهر أن الإيرانيون سيهيمنون على سوريا.

لكن الإسرائيليين لن يسرهم وجود نظام إسلامي في دمشق، ولا أن يصبح الوضع في سوريا غير مستقر مثل لبنان، وهو الوضع الأرجح. فهم يعانون الآن من تهديدات الجهاديين في سيناء. وفكرة وجود مشاكل مشابهة في سوريا، حيث يقابلها الجليل على الحدود الشمالية، لا صحراء النقب على الحدود الجنوبية، تسبب قلق للإسرائيليين.

ولعل أهم الخاسرين هما روسيا والصين. لقد عانت روسيا، مثل إيران، من انكاس كبير في سياستها الخارجية، سيكون له عواقب نفسية. فالوضع في سوريا أوقف اندفاع السياسة الخارجية التي بناها الروس. لكن الأهم هو ما كان يأمله الروس والصينيون في أن تبقى الولايات المتحدة الأمريكية منشغلة عنهم بتركيزها على الشرق الأوسط. وانهيار الأسد وعواقب ذلك في المنطقة ستزيد من احتمال انفكاك أمريكا عن المنطقة. وهذا ما لا يريده الروس والصينيون، لكنهم في النهاية لا يملكون القوة لفرض النتائج التي يريدونها في سوريا.

استراتيجية القوة المسيطرة هي التشجيع على وجود توازن في القوى، يحتوي التهديدات دون الحاجة إلى تدخل مباشر. هكذا كانت الاستراتيجية البريطانية، لكن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن تحسن تطبيقها. أما بعد الحرب مع الجهاديين، فهناك بوادر بنضوج الاستراتيجية الأمريكية. وهذا يعني إتاحة المجال للقوى الفاعلة الداخلية في المنطقة لتعمل، مع التدخل فقط في حالة القصوى. تبدو الأحداث في سوريا على أنها فقط مسألة بقاء النظام من عدمه. لكن لها تأثير كبير جدا في الحد من القوة الإيرانية، وإيجاد توازن محلي في القوى، وانفكاك الولايات المتحدة الأمريكية عن هذه المنطقة، لتركيز على الشؤون العالمية الأخرى، بما فيها روسيا والصين.

المصدر: stratfor - ترجمة مركز الشام المعاصر للدراسات

المصادر: